مواكب الأعراس
فى عهد بنى العباس
للأستاذ يوسف يعقوب مسكونى

من الحوادث التاريخية ما يبعث اللذة ويسلى في أوقات الفراغ . ونحن فى درسنا للتاريخ نضيف إلى حياتنا اليومية ذكريات من الماضى تبعثنا إلى التأمل والمقايسة بين أمسنا وحاضرنا فيختار القارىء من هذه الصفحات ما تصبو إليه نفسه وما يسمو به عقله وما تلتمس به نفسه . وهذه صفحة من صفحات تاريخ الدولة العباسية التى شغلت العالم الشرقى والغربى قروناً كانت فيها أدوار عز وفخر . ولقد اخترنا لموضوعنا هذا ثلاث حفلات من أفخم الحفلات التى جرت فى عهد بنى العباس من أوائل أدواره وأواسطها وأواخرها فنقول : كانت أيام المأمون أيام عز وجاه ورغد ورخاء وتفوق وانتصار دوّنها المؤرخون بما فيها من الحلل القشيبة التى رفلت بها الدولة العباسية واعتزت أيما اعتزاز ، حيث كانت مناراً للعلوم وينبوعاً للثروة والمال . فبذخ الخلفاء والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وتخرقوا بما يفوق وصفه فى كل حال من الأحوال . فكانت الحفلات والولائم والاحتفالات ذات مظهر فيه كل البذخ والإسراف يفوق ما يقوم به ملوك الأطراف تعزيزاً لهيبة الخلافة وعنواناً لسلطانها وجبروتها . ومن هذا ما جرى فى حفلة زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل الذى كان وزيره آنذاك . وها نحن أولاء نسرد ما جرى فى تلك الحفلة التاريخية التى فاقت الحفلات التى تقام عادة بين الملوك والأمراء .

وقد جرت تلك الحفلة فى منازل الحسن بن سهل السرخسى التى كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط[1] . وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط بينها وبين جيُّل ، عليه عدة قرى ، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون ، وفيه بنى المأمون ببوران . تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده ، واسمها الحقيقى خديجة ، وبوران لقبها . احتفل أبوها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله فى عصر من عصور الجاهلية والإسلام . فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فيقرأ ما فى الرقعة ، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ولم يكن فى العسكر من يشترى شيئاً لنفسه ولا لدوابه . وذكر الطبرى أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً يعدُّ له فى كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه . وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم . وكان رحيل المأمون نحو الحسن ابن سهل أى إلى فم الصلح لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين . وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب ؛ فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة . فلما رأى تساقط

(١) ذكرها السمعانى ونقل عنه العماد فى الخريدة ونقل عنهما ياقوت الحموى فى معجم البلدان مادة فاء ميم .

عن الشعر العربى والشعراء العرب وفي نفسه ما فيها من الحسرة والألم ... فماذا فى جميع دواوينا مما فى ديوان بيرون مثلاً ؟ إنك تقرأ فى بيرون تلك الملاحم الطوال والمنظومات القصصية الرائعة ، والتمثيليات الإبداعية الشائقة ... إنك تقرأ دون جوان ... تشيلد هارولد ... بِتّو ... الجزيرة ... الجياؤور ... الفرصان ؛ ثم تمثيليات مارينو فاليرو ، ورنر ، قايين ، مانفرد ... إلى آخر تلك الروائع التى تكوّن ثروة بيرون الأدبية الهائلة ، وإنتاجه الشعرى العظيم ... وكل من تلك الملاحم أو التمثيليات يصلح لأن يكون مجلداً ضخماً يزرى وحده بأى ديوان من دواوينا . هذا عدا قصائده التى لا تعد ... وبيرون مع ذلك مات شاباً كما مات شلى وكيتس ، فلم تحل حياته القصيرة دون هذا الإنتاج البارع الغزير السامى ... ومن الشعراء الإنجليز والفرنسيين والأسبان عشرات يفوقون بيرون غزارة إنتاج ويرتفعون إلى أفقه إن لم يفوقوه جودة ... فمتى نفتح دواوين شعرائنا العرب فنباهى بها ولا يقولانا هذا الخزى ؟ ومتى يتعاون شعراؤنا الكهول مع شعرائنا الشباب فى رأب هذا الصدع في شعرنا ولا يستعلون عليهم ؟

دمنهور

دمنهور

اللآلئ المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال : قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال فى وصيفه الخمر والحباب الذى يعلوها عند المزج :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها
حصباء درّ على أرض من الذهب

وقال الطبرى أيضاً : دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح ، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدّرّ كم ؟ فقالت : ألف حبة ؛ فوضعها فى حجرها ، وقال لها : هذه نحلتك وسلى حوائجك . فقالت لها جدتها : كلمى سيدك فقد أمرك . فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدى عمه ، والسماح بالحج لأم جعفر ، وهى الست زبيدة . فقال : قد فعلت . فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية ؛ وأوقدوا فى تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون مَنًّا فى تور من ذهب . فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا إسراف . وقد قالت الشعراء والخطباء فى ذلك فأطنبوا . ومما يستظرف فيه قول محمد بن حازم الباهلى :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن
يا ابن هرون قد ظفر ت ولكن ببنت مَن

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون ، قال : والله ما ندرى أخيراً أراد أم شراً ؟ وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه . وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وغيرهم ، فقصده بعض الشعراء وأنشده :

تقول خليلتى لما رأتنى أشد مطيتى من بعد حل
أبعد الفضل ترتحل المطايا ؟ فقلت نعم إلى الحسن بن سهل[1]

* * *

والحكاية الثانية زواج الخليفة المقتدى بأمر الله بابنة السلطان ملكشاه السلجوقى ، وهى من حوادث سنة ثمانين وأربعمائة ، على ما رواه ابن الأثير ، قال : فى المحرم نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخليفة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومى . وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة ، وثلاث عماريات ، وعلى أربعة وسبعين بغلا مجللة بأنواع الديباج الملكى وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة ، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقا من فضة ، لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلى ، وبين يدى البغال ثلاث وثلاثون فرساً من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجوهر ، ومهد عظيم كثير الذهب . وسار بين يدى الجهاز سعد الدولة كوهر آتين ، والأمير برسق وغيرهما . ونثر أهل نهر معلّى عليهم الدنانير والثياب . وكان السلطان قد خرج من بغداد متصيداً ، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلثمائة موكبيّة ، ومثلها مشاعل ، ولم يبق فى الحريم دكان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والاثنتان وأكثر من ذلك . وأرسل الخليفة مع ظفر خادمه تحفة لم ير مثلها حسناً . وقال الوزير لتركان خاتون : سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وقد أذن فى نقل الوديعة إلى داره ؛ فأجابت بالسمع والطاعة . وحضر نظّام الملك فمن دونه من أعيان دولة السلطان ، وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير . وجاء نساء الأمراء الكبار ومن دونهم ، كل واحدة منهن منفردة فى جماعتها وتجمّلها ، وبين أيديهن الشموع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان . ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع فى محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شىء ، وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة وسارت إلى دار الخلافة . وكانت ليلة مشهودة لم ير ببغداد مثلها . فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لسماط أمر بعمله ، حكى أن فيه أربعين منّاً من السكر ، وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر فى العسكر ، وأرسل الخلع إلى الخاتون زوجة السلطان وإلى الخواتين ، وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك[1]

* * *

والحكاية الثالثة وهى من أواخر عهد الدولة العباسية أى من حوادث سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ذكرها ابن الفوطى قال : فى هذه السنة وصل الأمير عز الدين قيصر الظاهرى مخبرا بوصول ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وكان قد نفذ لإحضارها لتزف على زوجها مجاهد الدين أيبك المستنصرى المعروف بالدويدار الصغير . فخرج إلى تلقيها بدر الظاهرى المعروف بالشحنة ـ أى رئيس الشرطة ـ أحد خدم الخليفة وفى صحبته ثلاثون خادماً ، والأمير بدر الدين سنقرجاه أمير اخور الخليفة

(١) الطبرى فى حوادث سنة ٢١٠هـ ومروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٦٥ ، ٦٦ ط باريس وتاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ط النجف . والفخرى لابن الطقطقى ص ١٦٧ ط مصر . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١١٦ ، ١١٧ ط بولاق ومختصر أخبار الخلفاء للمنسوب لابن الساعى الخازن ص ٥٤ ، ٥٥

٢١٠٨

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٤٨ ط ليدن ج ١٠ ص ٤٨ ط بولاق فى حوادث سنة ٤٦٤ هـ